٩٩/٥/٤/٧

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبد الله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبد السلام المسدي

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٥١١
التاريخ / ١٥/٢/٢٠١٤

الثمن : ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

رودنسون ونبيّ الاسلام(*)

د. حسن قبيسي
مراجعة حسين حجازي

يهدف كتاب حسن قبيسي إلى بلورة وجهة نظر منهجية عبر نقده الفكر الماركسي، ممثلاً بعلم من أعلامه المعاصرين، والمهتمين بالاسلاميات وبحياة النبي، وهو المستشرق مكسيم رودنسون.

ورغم الجهد الحقيقي الذي بذله المؤلف، فإنه لم يتوصل إلى منهج خاص به «في تصديه للتفسير المادي للظاهرة المحمدية». ونستطيع القول إنه استهدى بالمنهج البنيوي في مهمته هذه.

يتحدث المؤلف في الفصل **الأول** من الكتاب على الطريقة التي تناول بها رودنسون النص القرآني ـ ويأخذ عليه اهماله «للجانب الأسطوري» باعتباره لا ينسجم مع الفكر المادي الذي يحمله رودنسون، والذي لا يمتلك أدوات تحليل وتمثل هذا الجانب، ذلك ان الحدث التاريخي يتحول إلى حدث أسطوري. والظاهرة المحمدية لا تنحو المنحى الذي يريده لها رودنسون قسراً؛ إذ إنها تنحو نحو مناهضة التاريخ بالمعنى الذي أنتجته فلسفات التاريخ الأوروبية الحديثة. فالتاريخ عند العرب الأقدمين «عبارة عن يوم ينسب اليه ما يأتي بعده» كما يقول المقريزي.

فالسؤال عن تحول الحدث التاريخي إلى حدث أسطوري، هو الذي يمكن الباحث من فهم الظاهرة الدينية، أما ادخالها قسراً ضمن منهج فكري غريب عنها، فذلك مساهمة مجانية في البعد عن فهمها، وأدراجها ضمن منطق آخر لا علاقة لها به. الظاهرة الدينية لا يمكن أن تفهم خارج البنى الثقافية والاجتماعية التي أنتجتها؛ ثم إن انتزاع البعد الأسطوري من الظاهرة الدينية، يجعلنا كمن «يتفحص فيلاً بالميكروسكوب» كما يقول العالم بوانكاريه.

«لذا ينبغي أن يكون التشديد في تاريخ الظاهرة الدينية، الواحدة، على الظاهرة الدينية لا على التاريخ». إذ قبل أن نؤرخ لشيء ما، علينا أن نعرف قبل ذلك ماهيته، وهذا يقتضي ابتداع منهج مختص بمعالجته.

* * *

الفصل **الثاني** من الكتاب، يناقش جوهر الموضوعات التي تشكل معالم الوضع الاجتماعي قبيل الاسلام، والتي تناولها رودنسون كعوامل حتمية تاريخية، تحالفت وتضافرت في سبيل ولادة دولة الإسلام العتيدة:

أ ـ **الغزو:** يذهب رودنسون إلى أن السبب الحقيقي

(*) صدر الكتاب عام ١٩٨١، عن دار الطليعة ـ بيروت، وهو عبارة عن أطروحة أعدّها المؤلف حسن قبيسي لنَيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة.

للغزوات، إنما يعود للأوضاع الاقتصادية المتردية عند القبائل فالفقر والجوع هما عاملا إغراء بالاستيلاء على ثروات قبيلة أكثر يساراً. ولا يستسيغ المؤلف هذا التفسير الاقتصادي، بل يعتبر أن الحروب ظاهرة عامة مشتركة بين سائر الشعوب الغابرة بصرف النظر عن «أنماط إنتاجها وبيئاتها الطبيعية».

يقول عالم الانتروبولوجيا كلاستر: «من الثابت، أنه لا يمكن التفكير حول المجتمع البدائي دون التفكير بالحرب التي تتخذ ـ بوصفها معطى مباشراً من معطيات السوسيولوجيا البدائية ـ بعداً شمولياً».

لا نستطيع إذن أن نفسر واقع الغزو بطبيعة البنية التحتية للقبيلة: بالفقر، والظروف المناخية، والطبيعة. ثم إن «حسن قبيسي» لا يقف عند هذا الحد، بل يتساءل حول مشروعية الحديث على التقدم والتخلّف، بوصفهما مقياسين أنتجتهما الحضارة الغربية في تصنيفاتها للشعوب. إذ إن قبائل «البوشيمان كونغ» التي تعيش في صحارى أوستراليا، «تعيش في نوع من الوفرة المادية، نظراً لتمكنهم من تكييف أشياء حياتهم اليومية وتدبر أمرها». إنهم يعيشون بلا قلق؛ فهم لم يراكموا ثروات مادية يخافون عليها، على أن ذلك لم يدخل في عرفهم الاجتماعي. وإذا كان الاعراب جياعاً، فلماذا لم يغزوا جنائن الحضر القريبة منهم؟ وماذا لو كانت القيمة العليا عند البدو هي الحرية والحركة، لا الثروات؟

ب ـ **الدين وتنظيم الحياة الاجتماعية:** يعتبر رودنسون، «إن الدين لم يكن ليستأثر باهتمام البدو، وأنه لم يلعب أي دور في تكوين مثالهم الخلقي، وأن جميع تلك المثل، تلك القوى المنظمة للحياة الاجتماعية والشخصية، لم تكن تستعين بالعالم الآخر، بل تؤول كلها للانسان». إلا أن المؤلف يرى في ذلك استهانة بدور هذه المثل في تنظيم الحياة الاجتماعية، ويعتبر هذه الاستهانة جزءًا من المنهج الذي كرّس كتابه لمعارضته.

يقول جواد علي: «إن لعالم الأرواح أثراً خطيراً في عقائد أهل الجاهلية، والشعوب القديمة، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم، إذ يشغل ذلك العالم جزءا خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة، فنحن حين نبحث في العقيدة والدين عند الجاهليين، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة لمعتقداتنا، وإنما عن رأي أناسٍ كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه».

ولكن، ما معنى أن تكون الأرواح الخفية منظماً لهذه الحياة؟

إنها الديانة التي تشد الجاهليين إلى دين الآباء الأولين. فإذا قيل لهم: «**إتبعوا ما أنزل الله**» قالوا: «**نتبع ما ألفينا عليه آباءنا**»؛ أو قيل لهم: «**تعالوا إلى ما أنزل الله والرسول**»، قالوا: «**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**»... إلخ.

ولكن لماذا دين الآباء الأولين، الأموات؟ هنا يأتي جواب المؤلف بلسان نيتشه: «إنها قضية العلاقة بين الأجيال الحالية والأجيال التي سبقتها، في صلب الرابطة الأولى التي نشأت بين بشرٍ ينتمون إلى نفس العرق. كان الجيل الذي على قيد الحياة يعترف للأجيال السابقة ـ وخاصة السحيقة منها، أي تلك التي أسست السلالة ـ بأن عليه واجباً قانونياً. عندئذ يسود الاعتقاد بأن الجنس لم يستمر إلاّ بفضل إنجازات الآباء الأولين، وأن الواجب يقضي بالوفاء تجاههم، بالتضحيات، فيصار إلى الاعتراف بدين لاتني أهميته تتعاظم».

ويضيف نيتسه: «إن تاريخ الصراعات، والانتصارات، والتسويات، والاندماجات العرقية، يجد انعكاسه في خضم أحساب الآلهة وأنسابها، في أساطير المعارك والانتصارات، والمصالحات التي جرت بين هؤلاء الآلهة. إن السير نحو الدولة الشاملة الواحدة، هو على الدوام سيراً نحو شمولية الإلٰهي أيضاً. والاستبداد باخضاعه للفئة النبيلة المستقلة،

يمهد الطريق نحو مذهب توحيدي ما » .

هنا ، يصبح الدِّين ، دَيْناً للغابرين ، ينبغي وفاؤه .

ج ـ **الدين ، والعجز تجاه الطبيعة :** يقول رودنسون : « في عالم يبدو فيه للإنسان مدى ضعف قدرته ، بل في عالم تنشأ فيه ظروف تعيد خلق هذا الضعف لدى كل فرد ، نجد أنه أقرب إلى طبيعة الأمور أن يكون الادراك الاجمالي للعالم من طبيعة دينية . إن ما شعر به محمد ، شأنه شأن الكثيرين ، هو شعور بالارتهان تجاه ذلك السر الأخّاذ الرهيب الذي يحيط به ، وقد تبلور هذا السر وتجلّى عبر حضرة إلّهية هائلة الحضور » .

لا يستحسن المؤلف أن يكون الالتجاء إلى الدين التوحيدي « أقرب إلى طبيعة الأمور » ، فقد يكون معنى هذا الكلام ، أن الانسان بلا عقل ! أو أن الفكر التاريخي ينسف نفسه بنفسه ـ وهذا ما يريده المؤلف ـ ذلك أن الانسان سيظل يشعر بقصور ما تجاه الطبيعة ، بل إنه يزداد قصوراً مع تقدم العلم ، لوعيه حدود قدرته ، على أن هذا القصور ، وهذه المحدودية ، لا تجعلنا نسلم بحال ، بأن تنظيم الحياة الاجتماعية ، ينتمي أيضاً إلى حيّزٍ مختلف عن حيّز البشر وقدراتهم ؛ و« الأقرب إلى طبيعة الأمور » ، أن يكون البشر أنفسهم هم المسؤولون عن تنظيم العلاقات فيما بينهم .

د ـ **الدولة الإسلامية :** يعتبر رودنسون ، أن قيام الدولة الاسلامية ، كانت « حاجة العصر العظمى » للتخلّص من دوامة الحرب والثأر المستمرة ، وكانت القبائل العربية بحاجة إلى سلطة تفرض سيطرتها على الجميع ، إلاَّ أن ما يراه رودنسون من بداهة الحاجة إلى بناء دولة مركزية ، يدخل ، بحسب ما يرى المؤلف ، ضمن المنهجية المادية التاريخية إياها ، والتي تعتبر حالة الدولة ، حالةً متقدمة عن الأوضاع السابقة ، وتتمشّى بالتالي مع الصيرورة التاريخية كما يريدها رودنسون .

★ ★ ★

يدور الكلام في الفصل **الأخير** من الكتاب ، حول الدين الذي دانت به مجتمعات ما قبل الدولة ، الدين الذي تدين به الجماعة للغائب ، بذلك ، يكون الدين لدى القبائل حرزاً يقيهم شر الدولة ، التي لم تكن قَدَرَ الشعوب ، كانت احتمالاً تحقق حيناً ، وأخفق حيناً آخر . ومجتمعات ما قبل الدولة أمام خيارين ؛ فإمَّا أن تجعل مصدر تنظيم المجتمع والتشريع له خارج هذا المجتمع ، وهذا هو الدين بما هو دَيْنٌ للخوافي ؛ وإمَّا أن يكون مصدر التنظيم من داخله ، فتكون الدولة . واختيار الدين هو اختيار حضاري ، فطقوس العبادة ، وما تتطلبه الحياة اليومية ، إنما تُكرِّر أفعالاً وضعها الآباء الأولون الذين تحولوا إلى آلهة .

يكون الإيذان بنشأة الدولة ، ساعة تتخلّى القبائل عن ديانة الخوافي ، كرهاً أو طوعاً ؛ بذلك يصبح تنظيم المجتمع من داخله . إلاَّ أن دين الخوافي ينطوي على العامل الأساسي الذي من شأنه تدمير البنى القديمة وإعادة صياغتها في بنية واحدة متماسكة ، ذلك أن هذا الدين ، أناط أمر تنظيمه إلى الآخر ، الغائب ، المخفي ، الميت .

وقد تنبهت القبائل إلى مسائل من شأنها أن تصون وحدتها واستمرارها ؛ كأن تحيط رئيسها بكل ما يحول دون تحوله إلى سلطان . وكانت الحروب والغزوات لا تقوم بسبب الفقر ، بل كانت تشكّل عامل تماسك وتمايز أساسي للقبيلة ، تفتعلها كلما شعرت بدنو انقسام حاد في بنيتها ، لذا ، يحفل التراث العربي حول أيام العرب بأخبار تشير إلى تفاهة أسباب الحرب (البسوس ـ داحس والغبراء ... إلخ) . فإذا لم يكن للقبيلة أعداء ، ينبغي ابتداعهم ، لأن الحرب إذا توقّفت عند تلك المجتمعات ، فإن قلبها سيكف عن الخفقان .

ويعتبر المؤلف ، أن القبائل وقفت ضد الدولة منذ البداية ، وأن التاريخ لم يشهد عملية نشأة الدولة إلاَّ بالإكراه ؛ وتشكّل حروب الردة دليلاً على رغبة القبائل في

الاستقلال عن الدولة .

★ ★ ★

أنتجت الثقافة الأوروبية، ابتداءً من الثورة الفرنسية عدداً من المصطلحات، كالتقدم والتخلف، والهمجية، والبربرية والبدائية، وشاعت هذه الاستعمالات في الشرق الاسلامي. وإذا كان التقدم عند كارل ماركس، تعاظم القوة الانتاجية لرأس المال على حساب البروليتاريا التي سوف تستغل تفوقها السياسي لتنتزع السلطة من البورجوازية، فإن ميشيل فوكو قد سخر من المقاييس الغربية: « أولئك الذين لا يستطيعون أن يفكروا، دون أن يفكروا في نفس الوقت أن الإنسان هو الذي يفكّر، لا يستحقون سوى ضحكة فلسفية ».

ويتحدث كلود ليفي شتراوس عن قبائل تعيش على التقاط الحبوب البرية، على الرغم من معرفتها التامة بالتقنيات الزراعية التي يمتلكها جيرانها، لأنه محظور عليهم أن يجرحوا أمهم الأرض!

ويقول مرسيا إلياد، عالم الأديان: إن سكان كاب يورك، رغم معرفتهم لسلاح القوس والنشاب، فهم لا يستعملونه، لأنهم يعتبرونه أدنى فعالية من رماحهم، وتقاوم هذه القبائل جميع محاولات « التحديث » و« العصرنة »؛ واعين أن هذا التحديث سيحمل إليهم العنف والتخريب والمرض.

يرى المؤلف في خاتمة الكتاب، أن منهج رودنسون لم يفلح في تفسيره للظاهرة المحمدية، كما أن جميع الذين تناولوا النص القرآني، من القدماء والمحدثين، ناهيك بالمستشرقين، لم يصلوا إلى مراميه، وهو يدعو إلى إعادة قراءة النص وتحليله على أسس بنيوية.

إلاّ أن ما نخشاه أن يقع صديقنا حسن قبيسي، في نفس الشرك الذي رفضه منذ البداية؛ فالبنيوية أيضاً، ليست وليدة تراثنا الثقافي، وهي تتصدّى لمهمّة غريبة عنها، ذلك أنها نتاج الثقافة الغربية التي يدعو إلى مواجهتها من موقع ثقافي مختلف كل الاختلاف.

ولا يجيب المؤلف إجابةً واضحة عن كيفية تحوّل الحدث التاريخي إلى حدث أسطوري، مما يضفي على الحدث صفة القدسية. فلا هو مقتنع بأسطورة الحدث وقدسيته من جهة، ولا هو مقتنعٌ بمنهج رودنسون المادي من جهة ثانية. كما أن اعتقاده بأن الدين للغائب، الخبيء، لا يفسر لنا كيف أن النبيّ دعا إلى عبادة إلٰه واحد، نابذاً عبادة الآباء الأولين.

كذلك يتكشف للقارىء عدد من الأسئلة، يكاد يتلمس بدايات أجوبة عليها، إلا أن الأجوبة تأتي مسحورة مبتورة، وكأن المؤلف عازمٌ على إكمال ما بدأ به، لأن ما أورده في الكتاب، إنما يشكل زعزعة لمنهج مستشرق ماركسي؛ ولكن عبر أيّ منهج؟!.